سيكولوجية الجماهير المُنقادة في زمن الإعلام الجديد
واقعة جمال بن إسماعيل أنموذجا

Psychology of submissive audiences in new media time. incident of Djamel bin Ismail example

جمال الدين مدفوني[1] *، بن شرّاد محمد أمين[2]

[1] جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعياس (الجزائر)، djameleddine.medfouni@univ-sba.dz

[2] جامعة باتنة1 (الجزائر)، mohamedamine.bencharad@univ-batna.dz

تاريخ الاستقبال: 2022/09/29؛ **تاريخ القبول**: 2022/12/24؛ **تاريخ النشر**: 2023/03/18

ملخص: يسعى المقال إلى تقديم قراءة معاصرة لأطاريح الباحث الفرنسي غوستاف لوبون حول سيكولوجية الجماهير المنقادة، وربطها مع الأشكال الجديدة للجماهير التي ظهرت نتيجة ثورة الإعلام الجديد والطرق المستحدثة لتعبئتها وتهييجها، والقيام بإسقاطات لأهم أفكار لوبون حول سيكولوجية الجماهير (في عصر التشبيبك الاجتماعي) على واقعة حرق جمال بن اسماعيل والانقياد نحو تجريمه والتحريض عليه قبل ظهور حقيقة براءته.

وتوصل الباحثان إلى نتيجة مفادها أن انقياد الجماهير الجزائرية العنفوانية نحو تأييد واقعة الحرق على مواقع التواصل الاجتماعي وتداولها بشكل واسع (قبل تأكيد براءة المعني) ظهرت فيها بشكل واضح المسحة العاطفية الانقيادية غير الواعية التي تميز الحشود الغاضبة المنقادة حسب المسلمات التي وضعها غ. لوبون، وأنّ لمواقع التواصل الاجتماعي وروّادها دورًا كبيرًا في تأجيج عملية التحريض والتهييج ضد المعني وضرورة معاقبته شعبياً.

الكلمات المفتاح: دراسات الجمهور، سيكولوجية الجماهير، الإعلام الجديد، علم اجتماع الاتصال.

Abstract: The article seeks to provide a contemporaryreading of the French researcherideasGustav Le Pen on the psychology of submissive audiences, Linkingthem to the new forms of the masses that have emerged as a result of the new media revolution and the new ways to mobilize and andirritatethem, and to make projections of Le Pen'smost important ideas about the psychology of submissive audiences on the incident of Jamal bin Ismail .whowasburned and incriminate and abethimbefore the truth of his innocence emerged.

We have come to the conclusion that the Algerian audiences aggressive is moving towards supporting and widely circulating the burning incident on social media, appeared clearly emotional side submissive the unconscious characterizingangry, submissive crowds according to the postulateshe put G. Le Pen, Social media sites and theirpioneers have asignificant role to play in fuelling incitement and irritabilityagainst the meaning and the need to punish him popularly.
Keywords: Audience Studies, Audience Psychology, New Media, Sociology of Communication.

* المؤلف المرسل .

I- تمهيد :

قدّم عالم الاجتماع الفرنسي المخضرم غوستاف لوبون *G. LEBON* كتابه التأسيسي الأشهر سيكولوجية الجماهير منذ قرن ونيف من الزمن وتحديدا سنة *1895* ، وكان أول دراسةٍ اجتماعيةٍ معمقة يجريها باحث اجتماع على شرائح واسعة من الأفراد أثناء حياتهم الطبيعة عبر تطويع مناهج علمية دقيقة (في ذلك الوقت على الأقل) مثل الملاحظة بالمشاركة والمقابلات، فكان أول عمل علمي يحاول فهم ظاهرة "تكتل الجماهير" التي باتت تهدد النظام الاجتماعي القائم في أوروبا، أين حاول لوبون تقديم تفسيرات مُرضية للأحداث الواقعة آنذاك وتصحيح المعتقدات الخاطئة عن الجماهير التي كثيرًا ما يُساء فهمها، لتصبح سريعا النتائج المتوصل إليها من قِبله في كتابه المرجعي هذا بمثابة منطلقات ومسلمات يعتدّ بها ويُستند إليها متى ما كانت هناك حاجة لفهم نفسية الجماهير وطرق تعاملهم مع مختلف الظواهر والأحداث التي تهزهم أو تمس مجتمعاتهم،وكذا تفسير العوامل المؤثرة فيهم وفي تحريكهم، وقد ظهر الأثر المضاعف لأفكار لوبون هذه أكثر وأكثر بعد وفاته بخمسين عاما، حين استعانت الحكومات ومراكز البحث والجامعات الأوروبية به لفهم وتحليل سلوك مؤيدي الحركتين التولتارية والبروتارية، ومعهما الحركات الاشتراكية وكذا الأحزاب العمالية التي نشأت منتصف القرن الماضي في أوروبا.

لقد كانت الفكرة السائدة قديمًا هي أنّ الأفراد يتحرّكون بشكل عقلاني ويفكرون بمصالحهم ومصالح مجتمعهم بشكل منطقي حين يكونون بمفردهم، ويبقون عقلانيين كذلك حينما ينخرطون في العمل السياسي ويتجمهرون ويتظاهرون ويتكتلون وينقادون لتحقيق مصالحهم ومصالح جماعاتهم، بحيث يبقى حضورهم الذهني متقّدًا وتفكيرهم المنطقي واضحًا ولا يمكن أبدا للفرد الواعي أن ينساق خلف غوغاءٍ غير محسوبة العواقب مهما كانت التهيجات المحيطة –رغم وجود الغريزة الثورية الانتفاضية بشكل طبيعي عندهم– لتأتي أطروحات غوستاف لوبون حول سيكولوجية الجماهير وتثبت عكس ذلك بشكل علمي.

ومع فورة الإعلام الجديد خلال العشرين سنة الأخيرة التي مست العالم بأسره –ومنها الجزائر وتفاعل الجماهير العريضة بشكل واسعٍ مع ما يتم تداوله من أخبار ومعلومات وأحداث، بات التساؤل مضاعفًا حول القدرات المحتملة للشبكات الاجتماعية في تحريك الجماهير وتعبئتها وتهييجها وخلق غوغاءٍ افتراضية قادرة على النزول إلى الميدان، سواءً بتبنّيها قضايا عادلة ومصيرية كالديمقراطية والتعددية وإنهاء الحيف الاجتماعي السلطوي المفروض عليهم، أو ببساطة تهييجها وتعبئتها لأغراض وقضايا فارغة مبتذلة أو مضرة للنسيج المجتمعي الهش أصلا، كالهجرة غير الشرعية ورهاب الأجانب وقضايا اللاجئين وغيرها.

وفي الجزائر، زاد التساؤل حول الدور الحقيقي الذي بات يلعبه التشبيك الاجتماعي الرقمي في تحريك الجماهير الجزائرية وخلق "دافعية" ما داخلها للقيام بـ "الفعل"، والشواهد على ذلك كثيرةٌ، خاصة خلال السنوات الأخيرة، ابتداءً من دور هذه الشبكات في حراك فيفري *2019* ودفع الجماهير المناهضة لعهدة خامسة للرئيس بوتفليقة للنزول إلى الشارع، ومن قبلها دورها في تحريك الرأي العام حول ظاهرة اختطاف وهتك عرض القُصّر وقتلهم في عديد مدن الجزائر، وكذا دورها المحوري في تعبئة الجماهير وتكتلها ضمن مبادرات"ناس الخير" الشهيرة، ومن بعدها أيضا كما رأينا في أزمتي كورونا وانقطاع الأوكسجين وانتهاءً بسلسلة الحرائق المشبوهة في منطقتي الأوراس والقبائل صيف الـ *2021*، وكلها تأثيرات شبكية تأخذ في مجملها منحى تأثير إيجابي على الجماهير الشعبية الكبرى.

لكن حدثًا جزائريا آخر أعطى تمظهرا مختلفاً تماما لما يمكن للجماهير "المنقادة" فعله متى ما أحست أن "الكل يفعله ويشارك فيه" وأن فعلاً جماعيًا لن يتحمّل مسؤوليته شخص واحد بطبيعة الحال، وكيف تمّ توثيقه وتعظيم شأنه من قبل مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي، هذا الحدث المتمثل في اتهام الشاب جمال بن إسماعيل (*36* سنة) في افتعال حرائق منطقة القبائل وإصدار حكم "جماهيري" جماعي عليه تحت تأثيرٍ عاطفي اجتماعي سيكولوجي يحتمل صفة البراءة تحت ذريعة الوطنية بعد أن يتغلّف بالطابع العنفواني العاطفي،بقدر ما يحمل وجهًا آخر أكثر سوادً، بإظهاره الوجه الحقيقي للجماهير والعنف الذي يمكن أن ترنو إليه جماعةٌ ما متى ما أحسّ أفرادها أنهم على جانب الصواب، وكيف يمكن لهم الذهاب بعيدا والقيام بأشياء لا يمكن لهم فعلها لو كانوا بمفردهم، وهو ما يعرف بعملية خلق "القطيع" (أو تخليقه)، قبل أن تظهر الحقيقة سريعا وينقلب المجتمع المحلي والدولي على أفراد ذلك القطيع بُعيد تأكيد براءة الشاب جمال وحسن نيته في إخماد الحرائق رغم توسلاته للقطيع وتأكيده براءته بشكل

مستمر، **الشيء الذي دفعنا لخودراسة وفهم التأثيرات المحتملة لهذه الشبكات الاجتماعية في تخليق جماهير انقيادية عاطفية في هذا المقال،** وذلك بالاعتماد على المسلمات التي وضعها عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون في نظريته المرجعية حول "سيكولوجية الجماهير".

1. الجماهير المنقادة/ القطيع؛ مقاربة تأسيسية تاريخية:

في هذا المدخل التأسيسي، سيركّز الباحثان على "الجماهير المنقادة" (أو ما يعرف في بعض المرجعيات بـ "الجماهير الغاضبة"، "الجماهير المجرمة" وأيضا بـ "القطيع") وذلك بعد تناولنا أولاً لماهية الجماهير بشكل عام مع ابتعادنا عمداً عن الجانب الطيب والدور الجيد الذي تقوم به الجماهير حين تتكتّل لتغيير وضعٍ ما، وهو الأثر الطيب الذي يكون عادةً مرتبطا بوعي عميق وأفراد مثقفين وقادة رأي متمكّنين يعبّئون الجماهير ويشجعونها على الانخراط بشكل فعّال في الفعل المجتمعي في ظل واقع اجتماعي مزرٍ خانق لتحقيق التغيير المنشود، والدراسات العلمية والبحوث المحكّمة حول هذا الأثر الطيب والإيجابي والمرغوب كثيرةٌ ومتنوعةٌ ومتاحة.

لكن الأشكال "الانقيادية" للجماهير الواسعة والآثار الكارثية لثقافة القطيع تلك، والتي تُنتج في أغلبها أفعالا جماعية غبية وشديدة الحمق، أو قد تنتج سلوكات تصل في أقسى تمظهراتها وأبشعها إلى إخراج "الوحش الجمعي" داخل الأفراد ومن ثمة القيام بأفعال شديدة العنف مثل ما حصل مع المغدور جمال بن إسماعيل رحمه الله، وهي الأفعال غير الواعية التي تحرّكها عادة عوامل عاطفية وذاتية مختلفة.

هذه العوامل المختلفة تبدو شديدة التباين بل والتناقض أحياناً في قدرتها على التعبئة الإيجابية للجماهير وكذا التهييج السلبي العنفواني لهم، وهي العوامل التي يمكن لنا اعتبار الإعلام عبر الوسائط الجديدة أو ما بات يعرف **بالإعلام الجديد** وتهييجه للجماعات المنقادة واحداً منها وأكثرها تأثيرًا على هذه الجماعات، خاصةً على الأفراد ذوي الوعي المحدود والعنفوانيين العاطفيين الذين يظهر عنفوانهم هذا متى ما أصبحوا منضويين تحت جماعات غاضبة أو حمقاء أو ناقمة أو بائسة أو ببساطة يائسة، ويشكّلون معاً **مجتمعا افتراضياً ناقمًا**، والذي عرّفه واضع هذا المفهوم هاورد ريجنولد *Howard Rheingold* الذي يعدّ أول مُنظّرٍ له في كتابه الذي يحمل نفس الاسم *Virtual Community*(المجتمع الافتراضي)على أنه "تجمعات اجتماعية تشكلت من أفرادٍ في أماكن متفرقة في أنحاء العالم، يتقاربون ويتواصلون فيما بينهم عبر شاشات الكمبيوتر والبريد الإلكتروني ويجمع بين هؤلاء الأفراد اهتمام مشترك، ويحدث بينهم ما يحدث في عالم الواقع من تفاعلات، ولكن عن بعد من خلال آليةٍ اتصاليةٍ ممثلةً في الإنترنت". (حدة يوسفي، سعاد بن عبيد، 2017، 204)

وبالإضافة إلى الإعلام الجديد كأداة لتعبئة الجماهير وتحريضها، فإن العوامل التقليدية؛ كالدين والسياسة وتهديد الوحدة الترابية والمشاكل الاجتماعية المتراكمة (رغم تراجع الدين في قدرته على التعبئة في المجتمعات الغربية على الأقل) تبقى حاضرةً بقوة،وهنا يقول الباحث ب. أديلمان:" لقد حلّت السياسة محلّ الدين في تحييش وتهييج الجماهير وتحريكها، ولكنّها استعارت منه الخصائص النفسية نفسها على ما يبدو، وبمعنى آخر، فقد أصبحت السياسة ديناً مُعلْمناً"، ففي الماضي كان الدين أو الأيديولوجيا الدينية هي التي تهيّج الجماهير وتجيّشها كي تنخرط في الحروب والثورات، كالدعوة العبّاسية والحروب الصليبية،بيد أن أوروبا تعلمنت في العصور الحديثة وحلّت الأيديولوجيات السياسية محلّ الأيديولوجيات الدينية للقيام بمهمّة التجييش وتحديدا خلال الثورة الفرنسية وبعدها. (هيثم مزاحم، 2016)

إذن، فقد لعبت **الثورة الفرنسية** تاريخياً دورًا محوريًا في تسليط الأنظار والبحوث العلمية على قوة الجماهير وسيكولوجيتها، وهي الثورة التي تعتبر أعظم حدث اجتماعي في العصر التنويري الحديث، وأول فعل اجتماعي حقيقي تكتّلت فيه الجماهير المختلفة وتوحدت جميع أطياف المجتمع الفرنسي (أو أغلبها) لمجابهة النظام الضريبي الفرنسي الجائر الجديد، الذي أقره الملك لويس الـ *16* والطغمة الفاسدة المحيطة به بأمر من الملكة الفاسدة ماري أنطوانيت.

وفي هذا الشأن، يورد سيمون شاما، بأن أول تكتل فرنسي جماهيري غاضب حقيقي كان سنة *1789*، حين احتشد جمهور باريسي ضخم غاضب وجائع أمام بوابات قصر فرساي الملكي لإعادة تخفيض وتثبيت أسعار الدقيق والخبز.(سيمون شاما، 2009، 171)

أمّا التكتل الفرنسي الثاني الضخم الذي جمع جماهير ناقمةً ومهيّجة، فكان ذلك الذي سبق اقتحام سجن الباستيل التاريخي في قلب باريس، لتحرير وزير المالية جاك نيكر الذي كان متعاطفا مع الطبقة الاجتماعية الجماهيرية المسحوقة، والذي قام الملك لويس السادس عشر بتأثيرٍ من النبلاء المحافظين في مجلس الشورى بعزله وسجنه، ليحتشد عشرة آلاف مواطنٍ غاضب ومستاءٍ، مقتحمين مبنى ليزانفاليد (الذي أصبح حاليا مستشفى

حكوميا عسكريا مخصصا لمعطوبي الجيش) وسرقوا منه بنادق وهراوات وأسلحة مختلفة، وتوجّهوا نحو سجن الباستيل لتحرير الأسرى، ثم الدفع لمواصلة الحركة الشعبية الغاضبة التي مهّدت للثورة الفرنسية وتهييج الباريسيين الجوعى أكثر، وصولاً إلى رفع العلم الفرنسي الجديد وانهيار مجلس طبقات الأمة وظهور الجمعية الوطنية بدلا منه، وانتهاءً بانهيار حكم لويس السادس عشر الجائر وقطع رقبته مع زوجته ماري أنطوانيت علناً، ثمّ تحجيم دور البورجوازيين الأغنياء، وتأسيس الجمهورية الفرنسية الأولى بديلا عن الملكية، وهي الحركة الشعبية الناجحة التي فتحت الطريق واسعًا لباقي الدول الأوروبية لتحذو حذوها، كما كانت هذه الحركة السبب الأول في كتابة لوبون كتابه الشهير حول سيكولوجية الجماهير ووضعه مؤشرات حول طرق تحريكها وتهييجها.

وقد استخدم كثيرٌ من السياسيين والمتحزّبين والمناضلين والثوريين وقادة الرأي وكتّاب الروايات كثيرا من أطروحات غوستاف لوبون حول "سيكولوجية الجماهير المنقادة" في خطبهم ودعاياتهم وطرق مخاطبتهم للجمهور، ولكن دون تصريح علني بذلك، كيلا تفشل خططهم في التأثير. أينآمن كل هؤلاء بفكرة لوبون حول"لا عقلانية الجماهير،مع التظاهر في الوقت نفسه بأنّها عقلانية ومنطقية"، ومن هؤلاء القادة نجد هتلر وموسوليني وغيرهما، بحيث لا يفوتنا التنويه هنا إلى أن موسوليني الفاشي الذي تفنّن في قيادة الجماهير وتهييجها كان قارئا نهمًا لغوستاف لوبون وأخذ كثيرا من أفكاره (بالإضافة إلى تبنيه أفكارمواطنه الإيطالي نيكولا ميكافيلي التي وضعها في كتابه "الأمير").

1.1. الجماهير المنقادة: مطارحات مفاهمية:

1.1.1. تعريف الجمهور:

ظهر هذا المصطلح للمرة الأولى عند أفلاطون وأرسطو في اليونان، ولا يُذكر اسم أفلاطون في البحث البلاغي وبلاغة محاورة الجماهير إلا وتبع ذلك ذكر جماعة السفسطائيين، اللذين شكّلا معا خصمين شرسين في طرق التعامل مع الجماهير من العامة، إذ يرى أفلاطون أن الفلسفة هي أفضل هذه الطرق، كونها قائمة على البحث في الحقيقة وعنها، في حين يعتمد السفسطائي على البلاغة لخلق الاعتقاد وترسيخه في نفوس الجمهور، فهاجم أفلاطون في محاوراته السفسطائيين وجمهورهم، لأنهم كانوا أكثر انشغالا بإرضاء مستمعيهم بدلاً من تعليمهم الحقيقة، ويبدو أن أفلاطون قد قسم الجمهور إلى نوعين دون قصد حقيقي منه، نوع أول باحث عن الحقيقة وناقد لما يتلقى، ونوع ثانٍ يكتفي بما يتم ضخه له ويصدقه متى ما جاء من أشخاص فصيحين ويثق في خطابتهم وكثيرا ما أبدى مقته للنوع الثاني، الذين يراهم حشداًلا يعرف الحقيقة ولا يهتم بها، رغم تأكيده أن البلاغة تبقى وسيلة فعالةلإقناع الجماهير كونها نشأت في جو من الثقافة الشفوية.(عادل الجداوي، 2019، 181)

إن ميزة الجمهور الاساسية هي بالتعدد، كونه "يتألف من فروقات داخلية لا حصر لها، ولا يمكن اختزالها إلى وحدة أو هوية واحدة، فيه ثقافات مختلفة وأعراق مختلفة وجماعات إثنية مختلفة، وذكور وإثات مختلفون، وتوجهات جنسية مختلفة، وأشكال مختلفة من العمل والعمال، وأشكال مختلفة من الحياة، فالجمهور هو أعداد وافرة من هذه الفروقات المفردة". (مايكل هارت، أنطونيو نيغري، 2015، 31)

فالجمهور هو تعدادٌ بشري متنوع ومختلف لا تجمعه صفات مشابهة جسمانيا أو فكريا أو اجتماعيا، بقدر ما يوحدّه موضوع ما، وينتهي توحدهم هذا بمجرد انتفاء وجه التوحد وقضيّته، ويختلف الجمهور كمفهوم عن مفاهيم مشابهة له مثل الشعب، الأمة، الرأي العام، الحشد، لكنه يقترب أو يتداخل مع المفهوم الذي نركز عليه في مقالنا هذا وهو "الجمهور المنقاد" أو "القطيع"، ويمكننا القول أن القطيع هو شكل عاطفي من اشكال الجماهير، ويمكن النظر إلى القطيع على أنه الجزء في حين يمثل الجمهور "الكل".

2.1.1. تعريف القطيع:

يُعرّف سيجموند فرويد القطيع بأنه جمهورٌ يتسم بروابط عاطفية عديدة، تؤدّي بأفراد هذا الجمهور إلى انعدام الاستقلال والمبادهة، وتماثل ردود أفعاله مع سائر الأفراد الذين يكون معهم في جماعة، وهبوط الفرد إلى باقي مستوى الوحدات التي تشكّل الجمهور، مع اتسامه بانحطاط النشاط الفكري، ودرجة مُشتطّة من العاطفية، وعجزٍ عن الاعتدال وضبط النفس، وميلٍ إلى تجاوز الحدود كافة خلال التظاهرات العاطفية، وإعطاء متنفس لهذه التظاهرات بالمبادرة إلى الفعل".(سيجموند فرويد، 2005، 99)

فالقطيع جمهور ذو نزعة عاطفية، يرنو أفراده إلى تهميش المنطق وخفض مستوى تفكيرهم، والانجرار خلف باقي مفردات هذا الجمع.

"سأذهب حيث تذهبون"، بهذه العبارة التقريرية يعرّف الباحث الفرانكوجزائري مهدي موسعيد القطيع، أو جمهور المنقادين من وجهة نظره، حيث كان بنفسه شاهداً على مراسيم تشييع ضحايا هجوم مسرح الباتكلان –الذي هز فرنسا منذ سنوات قليلة– والذي أقيم في ساحة الجمهورية بقلب

باريس وبحضور *100* ألف مشيّع، حيث وفي خضم المراسيم وصلت مجموعة متأخرة من المشيّعين وما إن رآها أحد "المتسرّعين" من الـ *100* ألف الذين وصلوا باكراً، حتى ارتبك واعتقادهم إرهابيين وبدأ بالصراخ والركض ليتبعه في ذلك بضعة آلاف آخرين دون أي سبب واضح فقط لانقيادهم خلف الخوف والشك الذي بثه فيه أحدهم رغم الإجراءات الأمنية المضاعفة،(Mehdi Moussaid,2019,111) وهي الواقعة التي دفعت هذا الباحث لوضعه دراسته هذه، والتي توصّل فيها إلى أن الجماهير تنقاد متى ما أحست بضغط اجتماعي غير مبرر وتركض خلف الآخرين وتقلّدهم متى ما اعتقد (أو اقتنع) الشخص بأن هؤلاء الآخرين لن يجتمعوا على شيء خاطئ، وقد شبّه مهدي موسعيد هذا الانقياد بشخص وصل إلى إحدى محطات المترو غير المألوفة عنده ولم يعرف اتجاه الخروج فاضطر للنظر إلى باقي الركاب وتبعهم وانقاد خلفهم لاعتقاده بأن اتجاههم هو نفس اتجاهه رغم احتمال تعدد المخارج والمسارات.

وقد وضع إيريك هوفر في الفصل *14* من كتابه "المؤمن الصادق: أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية" سبعة عوامل تشجع الفرد على الدخول في جماعةٍ ما والانقياد لها ولقادتها دون أن يكون بالضرورة مقتنعا بها، وهي: حب التقليد، الكراهية العمياء، الإقناع بالقمع، تخليق الرغبة في التبشير، حب القيادة، العمل وأخيرا الشك،(إيريكهوفر:المؤمن، 2010، 145،184) ولا يشترط أن تجتمع هذه الأسباب السبع معا، بل يكفي واحد منها فقط لتحفيز الشخص على ركوب حركة جماهيرية ما.

مع تأكيدنا هنا على أهمية أن كلّ "فعل جماعي للجماهير" يحتاج إلى "جماهير فاعلة" غير ساكنة ولا هادئة، مع إجبارية تحقق شرط خروج هذه الجماهير من الظل إلى العلن.(John Dewey, 2005, 57)

إذا، يبدو لنا أن كثيراً من الباحثين ينظرون تاريخياً للجماهير الشعبية الواسعة نظرة سلبية، أين يرى "هيبوليت تين" الجماهير بأنها أساسٌ ثابتٌ للوحشية، بينما رأى "توماس كارلايل" الجمهور بأنه "يتألف من أرواح مبهمة تتنازع هناك مع ضجيج غير مفهوم كمخلوقات غير قادرة على الإفصاح عما يؤلمها"، فالجمهور مجرد جمعٍ وحّدته المشاعر المبهمة وهو عرضة للتعصب وعرضة لأن يتلاعب به خطباء الإثارة، وهو غير قادر على التمييز بين الخيال الجمعي والحقيقة". (ستيفن كولمان وكارين روس، 2012، 21)

وإذا كان الموضوع الذي تتكتّف حوله الجماهير وتتكتل وتخرج وتتحرك بسببه معروفًا وواضحًا **عادة**، إلا أن الانقياد الجماهيري يكون في بعض الأحيان مقرونا بعامل رمزيّ بحت كالدعاية السياسية مثلا، ومن ثمة تخليق جماهير تابعة منقادة ومتشبعة بالرسائل الرمزية **'**حسب العالم سيرغي تشاخوتين**'**.(Serge Tchakhotine, 1952, 254)

3.1.1. كرونولوجيا الانقياد:

على المستوى التاريخي لا يمكن تحديد ظهور الجمهور المنقاد بشكل دقيق، بقدر ما يمكن ضرب أمثلة تاريخية موثقة لذلك النشوء، ومن ثمة محاولة دراستها اجتماعيًا وإثنوغرافيًا لمعرفة ظروف نشأتها والعوامل المساعدة في ذلك، ومن بعدها تحديد ماهيتها بناءً على دروس التاريخ ونتائج الانقياد هذا، والتي تكون سيئة في مجملها.

في دراسة تاريخيةٍ إثنوغرافيةٍ لطيفةٍ تحت عنوان "*معتقدات خاطئة وجماهير ساذجة*" للباحث الأمريكي وعالم النفس ***Hugo Mercier*** في كتابه ***Not Born Yesterday*** يُورد العالم مجموعة من الوقائع التاريخية التي دفعت "الجمهور القطيع" للانخراط في سلوكيات غير منطقية بسبب ما تمّ بثه فيهم من معتقدات، وهي السلوكيات التي جعلت فكرة "أنّ الجماهير ساذجة" ذات مصداقية أكبر.

ففي عام *425* قبل الميلاد مثلاً، كانت أثينا ولسنوات طويلة تخوض حربا مدمرة مع إسبرطة، وفي معركة بيلوس الشهيرة،تمكنت القوات البحرية والبرية الأثينية من محاصرة القوات الإسبارطية في جزيرة ***Sphacteria*** بعد أن أوقعوا عدداً كبيراً من النخبة الإسبارطية أسرى، فرفع قادة إسبرطة دعوى سلام وقدموا عرضاً فيه كثير من التنازلات لأثينا، لكن الأثينيين رفضوا العرض باقتراحٍ وإلحاحٍ من "العامة" ومن جماهير أثينا التي لا علاقة لأغلبيتها بالحرب ولا بقواعدها، فتقرّرَ استمرار الحرب وسحق إسبرطة، قبل أن تبدأ اسبرطة جمع شتاتها سريعًا وهي المتعودة على الحرب، واستغلت غباء جماهير أثينا وتكتلهم الجماعي لدفع قادتهم لرفض أي صلح أو سلام، وخلال أربع سنوات فقط استعادت إسبرطة السيطرة وتم الدفع لتوقيع معاهدة سلام جديدة مؤقتة عام *421*قبل الميلاد لكن هذه المرة بشروط أقل تفضيلا بكثيرٍ بالنسبة لأثينا مما عُرض عليها سابقا بسبب تغير موازين القوى.

وقد كان هذا الخطأ الفادح بسبب تأثير الجماهير المغفلة (كما سماها هيغوميرسيي) واحدًا فقط من سلسلة من القرارات الأثينية الرهيبة والكارثية التي تدخّلت فيها الجماهير الانفعالية، والتي انتهت بخسارة أثينا الحرب ولم تستعد قوتها السابقة أبدا، وصولا إلى انهيارها واندثار حضارتها كلياً.

وفي عام *1212* ميلادي في فرنسا وألمانيا،رفع عدد كبير من الفقراء الصليب لمحاربة "الكفار الأغنياء"، عبر استعادة القدس وتسليمها للكنيسة الكاثوليكية ومن ثمة إعادة توزيع الثروات عبر إغواء الشباب لتشكيل كتيبة وتقديم استعراض لهم في الشارع لتحيتهم، فتحمّس المئات من الشباب والأطفال فقط بتأثير وحماسة الجماهير حولهم، ودفع الآباء أبنائهم لإعلان انخراطهم للحصول على رضا الجماهير والشعور بالفخر والفرح، وبما أن أغلب هؤلاء من "كتيبة الفقراء" كانوا صغارًا جدا، فقد أُطلق على هذه الحركة في كتب التاريخ اسم "حملة الأطفال الصليبية"وحين وصل هؤلاء الشباب إلى منطقة سان دينيس في باريس، صلوا في الكاتدرائية ثم التقوا بالملك الفرنسي وكلهم آمل في حدوث معجزة ما، لكن لم تحدث أي معجزة لجيش من المراهقين غير المدربين وغير الممولين وغير المنظمين الذين أغوتهم صرخات الجماهير وأغواهم دخول أقرانهم فقط لخوض هذه المغامرة وتقليد بعضهم بعضاً وانقيادهم العاطفي، وبالفعل لم يصل أي منهم إلى القدس ومات الكثير منهم على طول الطريق وبقي أهلهم في فرنسا وألمانيا فقراء وبقيت القدس للمسيحيين غير الكاثوليكيين والذين لم يعرفوا شيئا حينها عن "حملة الأطفال الصلبيين".

ثم يورد نفس الباحث مثالا تاريخيا ثالثاً وأخيرا عن "رعونة الجماهير– القطيع"،ففي منتصف القرن الثامن عشر، كان شعب *Xhosa*، وهو شعب رعوي يعيش في جنوب إفريقيا ويعاني تحت الحكم البريطاني المفروض حديثا، حين اعتقد "بعض" أعضاء قبيلة *Xhosa*أن قتل جميع ماشيتهم وحرق محاصيلهم سيثير جيشا من الأشباح ليتصدى للبريطانيين ويبعدهم. وبالفعل بدأ أغلب ساكنة القبيلة في تقليد بعضهم رغم أنهم ما كانوا ليفعلوها بشكل فردي على الأغلب وبدؤوا بالانقياد حول هذه الخرافات وأخذهم الحماس كثيراً، فضحّوا بآلافٍ من رؤوس الماشية وأضرموا النيران في حقولهم الواسعة أمام استغراب البريطانيين واستمتاعهم. وبطبيعة الحال لم ينشأ أي جيش الأشباح و مات غالبية شعب قبيلة *Xhosa*.وبقي البريطانيون مستوطنين إلى غاية منتصف القرن الماضي،(Hugo Mercier, 2020,)مع الإشارة إلى أن الأمثلة والوقائع أدناه ترجمها الباحث السوري ماهر رزوق وأوردها في كتابه حر النشر "طريق الحكمة".

إن أغلب هذه الأمثلة أعلاه توضح اشتراك جماهير القطيع في صفات مشتركة، أهمها انتشار الشعبوية، والفقر والجهل واليأس بينهم، وقلة الوعي وعدم التفكير والتقليد والغباء الجمعي والانقياد وراء ما يفعله الآخرون حتى وإن كان لا يتجرأ أيّ منهم على فعله وحده، وتوضّح هذه الأمثلة إلى أين يمكنهم الذهاب وما الذي يستطيعون القيام به متى ما كانوا جماعات لا فرادى وحين يتحركون فعليا.

وهنا يتساءل الباحث المصري الكبير جلال أمين عن أهمية وقيمة عدد سكان بلد ما وجماهيره، إذا كان أغلبهم يظلون متوارين عن الأنظار عاجزين عن التعبير عن أنفسهم لأسباب اجتماعية واقتصادية مختلفة، ومن ثمة عجزهم عن إحداث أيّ أثر جماعي يذكر في نمط الحياة، ويرى أن المهم في إحداث هذا الأثر ليس حجم وعدد الجماهير بل في الجزء "الفعّال" منهم.(جلال أمين، 2003، 10)

في مسلسل الأنمي الياباني الفلسفي الشهير *" death note"* الذي يتناول صراع الخير والشر والحياة والموت وفكرتي الوجود والألوهية، نورد نحن الباحثان أيضاً مثالا آخر عن ثقافة القطيع قدمه هذا المسلسل، ففي إحدى حلقاته يعيش المحقق (**L**) تحدياً جديداً من أحد المذيعين الشعوبيين الذي يقوم بتهييج الجماهير اليابانية المتعطشة للإطاحة بالمحقق في صراعه مع قاتل المجرمين ***Yagami*** الذي نظّف حسبهم العالم من المجرمين والفاسدين واغتالهم،مستعملا في ذلك (أي المذيع) طائرة هيلكوبتر تابعة لقناته التلفزيونية التي تستغل غضب العامة من جهود *المحقق* في توقيف ياغامي وتحجيم رغبة هذا المحقق في إنهاء عمليات إعدام المجرمين خارج العدالة التي يتولاها ياغامي، فيقوم المذيع بتعبئتهم وتحريضهم، فقط لرفع نسب المشاهدة وبالتالي حصوله على نسب أكبر من الأرباح، أين تعمّقت القناة ومذيعها في تهييج الجماهير العاطفية العنفوانية ودفعها لاقتحام مركز المحقق وفريقه –رغم أن لا أحداً من تلك الجماهير كان قادرا على الاقتحام بمفرده أو يفكر حتى في تحدي سلطة الشرطة وحده–ثم نرى مشهدا للمحققوهو يضع يديه خلف ظهره وينظر من واجهة زجاجية كبيرة لجمهور القطيع الهائج أسفله ويقول المحقق لمساعديه بهدوء تام الجملة الفلسفية التالية *YOU HAVE NO IDEA WHAT PEOPLE ARE CAPABLE OF* حيث لاحظ المحققكيف استغلت القناة بؤسهم وفقرهم وادعاءهم الأخلاقي بأن ياغامي هو رجلٌ عادلٌ يحب الخير، ودفعه (أي ياغامي) للجماهير عبر استغلال وسائل الإعلام الجماهيرية لأن يحاولوا تحقيق عدالتهم الجمعية بأنفسهم عبر اغتيال المحقق وفريقه، واستعدادهم –وفي بضع لحظات فقط–للتحول إلى قتلة شرسين متى ما كانوا جماعات متوحدة الأهداف ومتى ما جيّشتهم وسائل الإعلام الجماهيرية هذه، قبل أن يستغل المحقق هذه الحقائق ويوظّفها لصالحه: إذ أنّ إدراكه

العميق لانقياد الجماعات ورغبتها في تحقيق انتصارٍ ما أو إنجازٍ جماعي لتناسي فشلهم الشخصي وحزنهم وكآبتهم، شجّعت المحقق لدفع تلك الجماهير الغاضبة المنقادة نحو تحقيق انجاز شخصي ينسيهم ترّهات السلوك الجماعي العنيف الذي كان سيكون هو ضحيّته، عبر قيامه بحيلة بسيطة وذكية،تمثّلت في فتحه نوافذ الطابق الأخير وإلقائه –مع فريقه– ملايين الأوراق النقدية على القطيع أسفل المبنى، وسط دهشة هؤلاء ثم فرحتهم العارمة بكون "السماء تمطر نقوداً"، وبمجرد أن بدأت السماء تمطر مالاً حتى نسيت الجماهير المنفعلة تمامًا أمر اغتيال عدو ياغامي، وتناسوا تهييج الإعلام الجمعي لهم، وانتقلوا إلى محاولة نهب أكبر قدر ممكن من المال بل وحتى ضرب وطعن بعضهم البعض لانتزاع كل ما أخذه الآخر منه وإعادة سرقة ما تمت سرقته. ليستغل L وفريقه بؤس الجماهير الجاهلة وقيامهم بالخروج ببساطة من المبنى ومغادرته ببساطة بعد اختلاطهم مع المتظاهرين، بل إن المذيع نفسه –وللسخرية– نسي في بضع ثوانٍ كل ما كان ينادي به عبر مكبرات الصوت وطلب من الطيار إنزاله لأخذ حصته من الأموال وصراخه وشراسته مع كل من يختطف منه ورقة نقدية واحدة.

وعن هذه النقطة تحديدا التي تتحدث "عما يمكن للبعض فعله متى ما دخلوا إلى جماعات انقيادية مهزوزة وغير واعية بآثار أفعالها الجمعية"، تُورد الباحثة الأمريكية *Catherine Sanderson* في كتابها ***Why We Act*** مدخلا بعنوان "*مخاطر القطيع*" الذي ترجمه ماهر زروق دائماً، وهو المدخل الذي تنطلق فيه الباحثة بقصة مثيرة كانت هي نفسها شاهدة عليها، ملخصها أنه في جامعة برينسيتون العريقة في ولاية نيوجيرسي الأمريكية، ظهرت خلال سنة *1990* فعالية يطلق عليها "الألعاب الأولمبية العارية" وكان الطلاب فيها رجالًا ونساءً يركضون حول الحرم الجامعي في منتصف الليل بمناسبة أول تساقط للثلوج كل عام، والذي يكون عادةً في شهر يناير، ويرتدي خلالها الطلبة أحذية ركض وقبعات وقفازات فقط، ويشربون كميات كبيرة من الكحول في الساعات التي تسبق الجري لمساعدتهم على تحمل درجات الحرارة المتجمدة وأيضاً لتحمل الإحراج الكبير الملازم للركض عراة أمام زملائهم في الفصل.

لتطرح الباحثة سؤالا وجودياً(سيصبح في وقت لاحق موضوع كتابها هذا): هؤلاء الشباب هم من أفضل وأذكى الطلاب في أمريكا فلماذا يفعلون هذا؟ إذ لا يبدو الركض في حالة سكر وعريّ عند منتصف الليل في الثلج مجرد فكرة رائعة يفكر بها الشخص وحده دون تأثّر واضح بمن حوله ويشبهونه بعيدا عن مبدأ الإمّعة.(Catherine sanderson, 2020)

لتصل الباحثة من ملاحظتها الشخصية لهذه الواقعة إلى **تأكيد** اكتشاف أساسيّ في علم النفس: **"إذ سيقوم الناس في بيئة جماعية بأشياء لن يفعلوها أبدًا بمفردهم"**. على الرغم من أن الألعاب الأولمبية العارية هذه كانت غير ضارة في الغالب، إلا أن نفس المبدأ ينطبق على الحالات التي يتصرف فيها الناس بشكل سيء حقًا ومضر، ونضيف نحن هنا بأن الفكرة الشائعة حول كون الجماهير المنقادة (القطيع) هم من العامة الجاهلة والغبية والفقيرة **قد تسقط أحيانا**، بحيث يمكن لتقليدٍ بليدٍ أن يجرّ خلفه بعضاً من أذكى الأفراد داخل أسوار مؤسسة علمية عريقة مثل جامعة برينستون أو خارجها، فالفكرة تتلخص في الانجرار خلف **الشيء** جماعيًا حتى وإن كان هذا الشيء مبتذلا أو مكروها على المستوى الفردي لهؤلاء ممن قاموا به جماعياً.

كما نوضّح هنا، أن روّاد وباحثي مدرسة فرانكفورت، خصّصوا حيّزًا واسعًا من بحوثهم الاجتماعية لهذه النقطة تحديدا (أي انخراط أفرادٍ من ذوي المستوى العلمي العالي في حشود جماهيرية تتميز بالحمق)، وذلك بعد أن هالهم مظهر بعضٍ من مثقفي ألمانيا وإيطاليا المميزين (في شخوصهم الفردية) متكتّلين مع حشود شعبية ثارت باسم الفاشية والنازية وتبنت أفكارها ودافعت عنها ونزلت للشوارع وشاركت في غوغائها، وهي الشخصيات التي عاشت طوال حياتها في علٍ وقدّمت أبهى الصور عن رقي ألمانيا وتحّضر إيطاليا، ليسارعوا إلى المشاركة في فعاليات النازيين والفاشيين، مع كل ما انجرّ عنها من سلوكات سيئة وعنيفة، ومنه التسبب في طرح رواد مدرسة فرانكفورت أسئلة جادة لمحاولة فهم سلوك هؤلاء المثقفين المنضمّين إلى الغوغاء الفاشية و/أو النازية الجماهيرية الجمعية.

إن الأمثلة عن السلوك السيئ والخيارات الخاطئة في حضور الجماعات تبدو وفيرةً، رغم أن نفس هذه الخيارات يبدو مستحيلا اتخاذها أو القيام بها بشكل فردي شخصي أو أحادي، ففي شهر فبراير*2010* مثلا، وقف الشاب "ديلانجي فورد" على حافة الطابق الرابع لمبنى تجاري ضخم في قلب مدينة سان فرانسيسكو وهو يهدد بالانتحار بسبب مشاكل نفسية معقدة ومتراكمة دون جرأة حقيقية منه لفعل ذلك، حيث تجمع حشد كبير من الفضوليين أدناه،ليبدأ أحد الماكرين هناك بالسخرية منه وسار على دربه في ذلك كثير من الناس المتواجدين هناك صدفة، حيث سخروا منه أيضا، ثم

نطق أحدهم قائلا *jump* فبدأ القطيع من خلفه يصرخون مثله "اقفز!.. اقفز!" و"افعلها..هيا"، وبالفعل بعد خمسٍ وأربعين دقيقة من تحميس جمهور القطيع له، قفز ديلانومات على الفور حسب كاثرين ساندرس دائماً، لينتهي "**العرض**" ويغادر أغلبهم ببرود تام دون إدراك فردي لفعلهم الجمعي الشنيع هذا، ودون ربطٍ حقيقي بين ثنائية تكتل الجماهير ونشوء العرض.

محلياً، تبدو "ظاهرة" السياسي المثير للجدل "رشيد نكاز" وتأثره الواضح بفكرة "العرض" هذه، وأثر حضور الجماعات حوله، وتأثره المضاعف متى ما حملت هذه الجماهير هواتفها الذكية وصوّرته وربطته بمستخدمي الإعلام الجديد جديرة فعلاً بالدراسة، إذ يُخبر المقربون من رشيد نكاز من أنه شخص حاذق شديد الذكاء ويدير أعماله التجارية وشركاته المتعددة في فرنسا بقبضة من حديد وحازم جدا مع موظفيه، ولا مكان معه للفكاهة أو "الاستهبال" إن صحت التسمية متى ما تعلق الأمر بمصالحه وأمواله، كما أنه شخص مثقف ذو ذوق رفيع، فصيحٌ جادٌ واسع الحيلة وقليل الكلام والاحتكاك بالآخرين ولا يثق فيهم بسهولة، والتي تعتبر بالمجمل من ميزات القادة أو الأشخاص المميزين عموما، قبل أن يرتدي نكاز سريعا قناعا شعبويا متى ما قابل الجماهير الواسعة وتفنّن في إعطائها صورة مصطنعة ومدروسة ومقصودة ومضحكة عنه، بل إنه وكلما زادت حرارة هذه الجماهير رفع هو من جرعة الشعبوية، فبات ما لا ينطقه في حضور خصومه أو حتى مؤيدهالنخبويين يقوله أمام الجماهير الشعبية بسهولة كبيرة ويدفعها نحو الهتاف باسمه، لتلعب هذه الجماهير دورها على أكمل وجه، بأن تشاهد عرضا مجانيا *free show* أولاً، ثم تهتف له ثانياً متى ما أعطاها عرضا جيدا، وثالثا وفي الأخير دفعه نحو قول المزيد وبالتالي دفعه للمزيد من الانحدار والسوقية، وذلك بهدف واضح وهو تنمية جمهوره الانقيادي وتحويله إلى أصول (أو أملاك) تعمل لصالحه وتؤيّده وتسانده وتدافع عنه وقت الحاجة مقابل إعطائها ما تريد من "عروض".

إذن، فتنمية الجماهير (المنقادة) باتت مسؤولية تسويقية رئيسية، والمسؤولية الأكبر هي تحويل هذا الجمهور إلى أصول مربحة طويلة المدى تعمل لصالح الشخص (أو الشركة).(جيفري كيه روزر، 2017، 16)

ومحليا دائما، فإن سطوة الجماهير العنفوانية الجزائرية تظهر بوضوح في مدرجات الملاعب، خاصة في اللقاءات النهائية التي تشهد حضور السلطات العليا للبلد، أو تلك المباريات الدولية التي تجمعنا بمنتخبات أجنبية، حيث تشهد المدرجات على هتافات صادمة وانتقادات لاذعة تصل حد الكلام الفاحش في حق رؤساء الحكومة والوزراء الحاضرين، وهو الكلام الجماعي البذيء الذي لا يتجرأ المشجع متى ما كان وحده أن يقوله للمسؤول في وجهه إذا ما قابله بمفرده، إضافةً إلى العنصرية المقيتة ناحية المنتخب الخصم خاصة المنتخبات الافريقية والعربية رغم أنهم يحييونهم لو قابلوهم على الواقع وحدهم ونفس الشيء لمشكل الجهوية الذي يعصف ببلادنا منذ سنوات، رغم أن أغلبنا متى ما سافر بمفرده أو احتكّ في وظيفته بشخص آخر من ولاية أوجهة أخرى من الوطن(كان يتنمر عليها جمعيًا في المدرجات) فإننا نجده يحدّثهم بأدب شديد وطريقة ودودة تتناقض مع ما كان يهتف به بالأمس في الملعب.

مثال فظيع آخر "عن الجماهير المنقادة" نجده في تنظيم داعش حين كان سلاحها الأول لإقامة الدولة الاسلامية المزعومة هو "قطيعٌ" يعاني من تديّن شكلي ومصطنع، وفراغ عاطفي ومادي واجتماعي رهيب وعدم فهم مزمن لـ"لإسلام الحق"كما هو أو طرق تنفيذ أحكامه، حيث أغوت الحركة بضع مئات آلافٍ من الشباب ودفعتهم للاشتغال عندها تحت مسميات مختلفة (مجاهدين، أتباع، أنصار، مقاتلين، وحتى مرتزقة) وإيهامهم بتحقيق كل ما يريدونه (فرديا) مقابل تنفيذ فظائع السحل والقتل والاغتصاب (جماعيا) وذلك لإدراك مسؤولي التنظيم على ما يبدو لحقيقة أن العامة سيتصرفون كما يريدونهم هم متى ماكانوا جماعات صغيرة لا بشكل فردي، حيث يقول أغلب مقاتلي داعش المقبوض عليهم بأن ما حدث لهم يشبه غسيل الدماغ وأنهم كانوا يقتنعون بما اقتنع به من قبلهم من "الإخوة" ويتبعونهم، ويقرّ أغلب مقاتلي التنظيم الإرهابي بأن ما فعلوه من قتلٍ وقطعٍ الرؤوس واغتصاب المراهقات ودفع المثليين من علٍ وسحل مناهضي التنظيم وإعدام الشيوخ يستحيل أن يفعلوه وحدهم أو حتى أن يفكروا فيه، وأن أغلبهم لم يعتقد يوما أنه سيقتل شخصًا آخر تحت مسمى الدين أو بعيدا عنه، وأن تأثير الجماعة وانقيادها جعل الأمر أقل سوءًا مما هو عليه تحت مبدأ " إذا عمت خفت" والانجرار خلف ما يفعله الآخرون، وهو الانجرار الذي يمكن النظر إليه وتفسيره من زاوية رغبة الفرد وحاجته إلى "الامتثال الاجتماعي".

هذا الامتثال الذي يبدأ من فترة الطفولة، فنجد الطفل يميل إلى تقليد حركات أهله وأفراد محيطه وتصرفاتهم، ثم يتبنى أفكارهم، ويكوّن هذا الامتثال مرحلة أساسية لتعلم كل مهاراته الحركية والاجتماعية اليومية، ثم يكافؤه مجتمعه في كل مرة يمتثل لهم ولطلباتهم وأفعالهم ويلتزم بالقواعد العامة، ثم تلازم حاجة الامتثال الاجتماعي الفرد مع التقدم بالعمر، كونها تعطيه شعورًا بالأمان والراحة، كما وتعزز صورته الاجتماعية وبالتالي ثقته بنفسه.

أين يعتقد غالبًا بأن المجتمع المحيط سيكافؤه بالقبول الاجتماعي متى ما سار معهم، رغم أن أغلبنا يجد نفسه في كثير من الأحيان مضطراً إلى الانصياع لقواعد تخالف قناعاتنا ورغباتنا، وتولّد في أنفسنا رغبة جامحة في مخالفتها. (الأكاديمية بوست، 2020)

وقد حاولت عديد النظريات العلمية تفسير وتفكيك ماهية سيكولوجيا الجماهير المنقادة وما يمكن للأفراد فعله بشكلٍ شنيع متى ما انضووا تحت غطاء جماعة مهيّجة، وهي النظريات التي ما هي في الحقيقة سوى قراءة تفسيرية تفكيكية علمية لأفكار لوبون والإضافة عليها، وقد حدّدتها نرمين شمس فيما يلي:

- **النظريات الكلاسيكية:**

والتي جاء بها النمساوي سيجموند فرويد، والذي يعتقد أن سلوك المجموعة يختلف تمامًا عن سلوك كل فرد منها، إذ تزداد حماسة الجماهير بالروح الجماعية وتندمج عقولهم لتصبح عقلًا جمعيًا واحدا يُفكر بطريقة جديدة تنتج عنها أفعال غير متوقعة.

ومن أبرز صفات الجماهير في النظرية الفرويدية الكلاسيكية غياب الهوية الشخصية، وسيطرة العقل الجمعي الذي يتميّز بالانجذاب إلى العواطف والشعارات النمطية وغياب التفكير المنطقي على الحشود، ما يترتب عليه ممارسة أفعال عدائية وهمجية، خاصة بوجود مشاعر بدائية في العقل اللاواعي للفرد، وهي المشاعر التي تنتهز أول فرصة للانطلاق داخل الجماهير، ما ينتج عنه اندثار هُوِيَّة الفرد، وانخفاض القدرات العقلية للجماعة.

- **نظرية نزع/انعدام الفردية:**

وهي نظرية تفسيرية جاء بها ليون فيستنجر استنادا لأفكار غوستاف لوبون دائماً، إذ يرى أنَّه لا مكانَ للاختلافات البشرية بأنواعِها كافَّة بينَ أفرادِ المجموعة، بل يصبحُ هؤلاء الأشخاص مجموعةً واحدةً بعقلٍ واحد، ما يُفسر عدم محاسبة الفرد لنفسه، وتحررَه مِن قيود القيم والمبادئ.

- **نظرية التقارب:**

تختلف نظرية التقارب هذه عن سابقتيها، في إيمانها بأن الأفراد يتجمعون وفقًا لتقارب الفكر والصفات، وأن سلوكاتهم نابعة من معتقدات ومبادئ الفرد نفسه لا من العقل الجمعي، بحيث تُقرّ هذه النظرية بأن كل شخص في الجماهير مسؤول عن أفعاله ومحتفظ بهويته الشخصية، وأنه لا مكان للأفعال الجماعية الناتجة عن الاندماج العقلي اللاواعي للجماعة.

فاحتشاد جماهير شعب ما لطرد اللاجئين من بلادهم مثلا يُظهر أن تهييج الجمهور بشكل جماعي لم يكن هو السبب وراء ممارستهم العنصرية والعنف ضد اللاجئين بل إن اقتناعهم الفردي ومن ثمة اتفاقهم على نبذ اللاجئين ورغبتهم في طردهم من بلادهم هو سبب الاحتشاد الأساسي. وترى هذه النظرية أن سيكولوجية الجماهير ليست عشوائية بقدر ما هي نتيجة معتقدات ومبادئ أفرادها.

- **نظرية القاعدة الناشئة:**

تُنسَب هذه النظرية التفسيرية إلى كلٍ من رالف ترنر ولويس كيلان، حيث يؤمنان بأن الجماهير تحتشد وتنقاد وفقًا لتقارب صفاتها، لكن السلوك الجمعي المترتب عن هذا الاحتشاد والتهييج يظل غير متوقع وتسميه بالسلوك "الناشئ" التي تدرسه ***بعد*** حصوله ولا تتوقعه أو تستشرفه ***قبل*** وقوعه. (نرمينشمس، 2021)

كما يبرز لنا امتحان "آش" كمفسّرٍ محتمل لما يفعله الفرد متى ما انضوى تحت عباءة جماعة جماهيرية ما، ويكون "اختبار آش" عادة بالشكل التالي: يقسّم المشاركون إلى مجموعات، كل مجموعة مكونة من ثمانية أشخاص يخضعون إلى تجربة إدراكية بسيطة، على المشاركين اختيار الجواب الصحيح والبديهي بين ثلاث خيارات، كأن يُسأل المبحوثون أيّ مسارٍ من هذه المسارات الثلاث هو الأطول أو ما هو حاصل 0x5 بحيث تكون الإجابة واضحة وبديهية، وفي الحقيقة يكون كل المشاركين يعرفون عن الاختبار، باستثناء شخص واحد، بحيث أن السبعة الذين يعرفون بشأن الامتحان يعطون **عمدا** نفس الجواب الخاطئ، وهنا تدرس التجربة ردة فعل هذا الشخص تجاه سلوك الآخرين، فهل سيمتثل لأجوبتهم الخاطئة غير المنطقية لمجرد أنهم يكوّنون الأكثرية، أم سيجيب إجابة مختلفة عن الآخرين؟، وقد بيّنت هذه التجربة –وللعجب– نسباً عالية من "الامتثال" والانقياد خلف الجماعة رغم سهولة المهمة، ورغم عدم الضغط بأي شكل من الأشكال على المشارك الثامن لاختيار جواب معين. كما بيّنت أن النسبة الأكبر من المشاركين الحاملين للرقم8 والذين أظهروا الانقياد في الأجوبة لم يقتنعوا بإجاباتهم بل أعطوها تماشيًا مع الأغلبية (الـ7 من كل مجموعة). بل

إن نسبة صغيرة منهم أظهروا القبول والاقتناع بهذه الأجوبة غير المنطقية، وتختلف نسبة الامتثال الاجتماعي هذه تبعًا لمتغيرات مختلفة منها: عدد الأشخاص الذين يشكّلون الأغلبية أين ترتفع نسبة الامتثال مع ارتفاع العدد. وكذلك صعوبة المهمة، بحيث تزداد نسبة الامتثال مع صعوبة المهمة، وأخيرا المستوى الاجتماعي للأغلبية، فكلما كانت الأغلبية من مستوى اجتماعي وثقافي وعلمي عالي، ترتفع نسبة انقياد الفرد الثامن لها.(الأكاديمية بوست، 2020)

2. أفكار لوبون حول الجماهير المنقادة في زمن الإعلام الجديد:

قبل البدء بتحليل أفكار غوستاف لوبون حول سيكولوجية الجماهير وربطها مع الإعلام الجديد، فإن المطلع على أهم ما سنورده من أفكار هذا الباحث وتحليلاته يستشّف نظرةً دونية واحتقارية واضحة من غوستاف لوبون للجماهير الجاهلة أو قليلة الوعي وللطبقات الشعبية العامة الفقيرة، بل إنّ كثيرا من ناقدي هذا الباحث يرون في نظرته الكثير من الذاتية والعجرفة رغم ما فيها من أفكار صحيحة وثابتة، وهي النظرة التحقيرية التي قد تجد مبررا لها متى ما علمنا أن غوستاف لوبون هو رجل يمينيّ سليل عائلة فاحشة الثراء ووريث أصول ذوي جاهٍ ونسبٍ وعلمٍ،وكثيرا ما تناولوا أحوال العامة وطرق تفكيرهم أثناء تناولهم الطعام مع العائلة أو مع ضيوفهم الكثر في بيتهم، بالإضافة إلى قناعة غوستاف "الشاب" الراسخة بأن لا طائل حقيقيا يرجى من الطبقات الجماهيرية العامة وأنّ "الحضارات الكبرى هي من صنع أقلّية صغيرة متفوّقة وغنية متعلمة تشكّل قمّة الهرم الاجتماعي" (أين يمكن الإطلاع بشكل موسع على فكرة نشأة الحضارة ودور الأقليات الاجتماعية المتفوقة في ذلك، في كتاب لوبون المرجعي الآخر "السنن النفسية لتطور الأمم".(غوستاف لوبن، 2017)

وفيما يلي، إيجازٌ لأهم أفكار لوبون حول سيكولوجية الجماهير وإسقاطها على جماهير الإعلام الجديد (الإعلام عبر الوسائط الجديدة):

1.2. التحريض أداةً لتحريك الجماهير وجعلها منقادة:

يقول لوبون "إنّ الجمهور الذي يمثل لعبةً واقعةً تحت تأثير كل المحرّضات الخارجية، يصبح عبدا للتحريضات التي يتلقاها، والفرد المعزول يمكنه أن يخضع لنفس المحرّضات المثيرة، مثله مثل الإنسان المنخرط في الجمهور، ولكن عقله يتدخّل ويبيّن له مساوئ الانصياع لها، وبالتالي فلا ينصاع، ويمكننا أن نحدّد فيزيولوجيا هذه الظاهرة عن طريق القول إنّ الفرد المعزول يمتلك الأهلية والكفاءة للسيطرة على ردود فعله، في حين أن الجمهور لا يمتلكها"،(غوستاف لوبن، 1991، 64) ويقصد في فكرته هذه أن تحرك الجماهير يكون مرتبطا بالمهيجات والمثيرات التي يتلقونها، وأن تلقيها وتقلبها وإبداء فعلٍ بناءً على المحرض يكون أكثر قابلية لتحقيق فعاليته المنشودة متى ما تم بثه بشكل جماعي، بحيث يغيب عقل الفرد ويتحرك وفق تحرك الجماعة ووفق المحرض والقضية التي يتبناها هذا العنصر التحريضي.

يبدو الإعلام الجديد فضاءً خصبًا لتحريض الجماهير وإثارتها ومن ثمة تحريكها، فالتحريض على مواقع التواصل الجديد يقفز على مثبطاته المختلفة، مثل إخفاء الهوية والظهور بهويات افتراضية، إما بأسماء مستعارة أو كأدامنة لصفحات فيسبوكية لا نعرفها نحن المستخدمون سوى بأسمائها لا بهويات أصحابها، كما يلعب عدد الإعجابات ونوعها (قلب، سخرية باستخدام إموجي ضاحك، أو أسى باستخدام إيموجي الدمعة) دورا مهما في الفعل التحريضي التحريكي، فمتى ما كان عدد "الموافقات" على محتوى المنشورات التي تستهدف تحريك الجماهير أكبر كلما كانت قابلية الجمهور سيكولوجيًا لتقبل المحتوى والانقياد خلفه أكبر، فقيمة المحرض أو الخطاب التحريضي هي من قيمة عدد المعجبين والمشاركين والموافقين عليه، ومن ثمة يصبح عدد المستعدين لنقل هذه القناعات الجماهيرية الجديدة من الفضاء الافتراضي إلى أرض الواقع يصبح أكبر.

يشير لوبون أيضا في هذه الفقرة التي أوردناها أعلاه إلى أن العقل الفردي يحضر ويمنع الانجرار خلف الفعل التحريضي إذا ما كان الشخص وحده، وهنا يظهر لنا إشكال محتمل أمام الفعل التحريضي للجماهير المنقادة في مواقع التواصل، فمادام الفرد يستعملها وحده فكيف ينقاد إلى الجماعة؟ تبدو الإجابة القطعية هنا صعبة جدا، خاصة أن كل شخص في الجماعة لا يتفاعل بنفس الطريقة ولا تُبدي مفردات الجماعة نفس ردود الفعل مع نفس المحتوى المعروض عليهم رقميا، بالنظر إلى الفروق الفردية شديدة الحضور عند كل شخص، لكن متابعة الأشخاص لصفحات معينة على فيسبوك او مشاركتهم في قنوات تيليغرامية تخصصية أو اختيارهم الحصول على المحتويات التي تتناول هاشتاغاً معينا على تويتر تجعلنا أكثر ميال للاقتناع والإقرار بأن من يختار متابعة تلك الصفحات (بمحتواها التحريضي) يكون واعيا لما يتلقاه، وقد يستحضر عقله من خلف شاشة هاتفه لتقييم المحتوى الذي يتلقاه، ويحاول أن يعرف إلى أي مدى سيسوقه هذا التحريض ويدفعه للانخراط في جماعات منقادة أو على الأقل متعاطفة مع القضية

محل النقاش أو يكتفي فقط بفهم المحتوى التحريضي الذي يبثه الإعلام الجديد للجماعات والجماهير الواسعة دون تحرّك فعليّ والنأي بنفسه عن أيّ انخراط واختيار الصمت والدخول في دوامة رقمية من العزلة وفقا للأفكار والمسلمات التي حددتها أستاذة الإعلام الجماهيري الألمانية إليزابيث نويل نيومان في نظريتها لولب الصمت.

2.2. تتنوع المحرضات والتهييج واحد:

إنّ "الأفعال التحريضية، كيفما كانت، تخلق تأثيرا قويّا للغاية على نفوس الجماهير، فتصبح هذه الأخيرة مستعدّة للموت في سبيل ما حُرِّضت من أجله، فالمحرضات القادرة على تهييج الجماهير متنوّعة ومتعددة، وبما أن الجماهير تنقاد لها دائمًا فإننا نجدها حيوية ومتحركة إلى أبعد حدّ إذ نجدها تتحرّك في لحظة من مرحلة الضراوة الأكثر دموية، إلى مرحلة البطولة المطلقة، إنّ الجمهور يمكنه بسهولة أن يصبح جلادًا، ولكن يمكنه بنفس السهولة أن يصبح ضحيةً وشهيدًا، فمن أعماقه سالت جداول الدم الغزيرة الضرورية لانتصار أي عقيدة، أو إيمان جديد".

وللإعلام الجديد كفضاء عام افتراضي أدواته وقادة رأيه الخطباء أو حتى المجرمين (نسبةً إلى فكرة الجماهير المجرمة التي تحدث عنها لوبون نفسه)، القادرين على تهييج وتحريض العامة، من خلال منشورات مكثفة ودقيقة وعاطفية، مع تسجيلنا حرصا واضحا على تضخيم حجم التفاعل وحجم الجماهير المؤيدة لهم ولأفكارهم وتكثيفه عن طريق استخدام ما يعرف بـ"الذباب الرقمي" والتي تتميز بتنوعها وتباينها لكنها تلتقي في خدمة القضية أو الموضوع محل التهييج.

3.2. الجمهور المنقاد رجلٌواحد (رقميا):

إذ يصبح الجمهور المهيج سيكولوجيًا كالإنسان الهمجي، "لا يعبأ بأي عقبة تقف بين رغبته، وبين تحقيق هذه الرغبة، حيث أنّ عدده الكبير يشعره بامتلاك قوة لا تقاوم، فمفهوم المستحيل لا معنى له بالنسبة للفرد المنخرط في الجمهور والإنسان المعزول يعرف جيدًا أنه لا يستطيع أن يحرق قصرًا أو ينهب مخزنًا، وبالتالي فإنّ مجرّد التفكير بذلك لا يخطر على باله، ولكنه ما إن ينخرط في الجمهور، حتّى يحسّ بالقوة الناتجة عن العدد والكثرة". (غوستاف لوبن، 1991، 65)

وهنا ما يربط الكثيرون بين ثنائية التحريض والتعبئة للجماهير المنقادة وتوحدها رجلا واحدا، والتي حددها أنتوني أوبرشال في ثلاث نقاط هي:

- **مستوى التنظيم الداخلي للفئة القابلة للتعبئة:** سواء اتخذ هذا التنظيم شكل جمعية أو جماعة، فحينما يكون هذا المستوى مرتفعًا، وعندما تكون الفئة المعنية "مجزَّأة"، أي مفصولة عن مراكز السلطة ومن ثم عاجزة عن نقل شكاويها بشكل يسير إلى السلطات القائمة، فإن ميل أعضائها إلى التعبئة والتكتل يكون قويًّا.
- **قوة البعد الصراعي للتعبئة:** وقة الصراع هذه تتجه ضد الممسكين بالسلطة وتتخذ طابعًا احتجاجيًّا للغاية رغم أن أغلب الذين يتعبَّأون في هذا النوع من التنظيم ليسوا في الواقع المستفيدين المحتملين وإنما مؤيدون خارجيون فقط.

وأخيرا إعادة وضع عمليات التعبئة للجماهير المنقادة في سياق سياسي. (سيسيليشو، أوليفي هفيليول، ليليا نماتيو، 2017، 104، 105)

4.2.الجمهور متفتح لأي موضوع أو قضية:

إن الجماهير أكانت واقعية أو على المستوى الرقمي هي مهيأة سلفا لتقي وتلقف أي لقية والتفاعل معها دون أي تفكير مسبق متى ما دخل الأفراد جماعات وسط الجماهير، وأي اقتراح يظهر (رقميا في حالتنا) سيفرض نفسه مباشرة على كل أفراد الجمهور ويرف الحياد أو التفكير ويفل الانجرار ويقدم لاشعوره على شعوره، "إنّ الجمهور يشرد باستمرار على حدود اللاشعور، ويتلقى بطيبة خاطر كل الاقتراحات والأوامر، كما أنه مليء بالمشاعر الخاصة بالكائنات غير القادرة على الاحتكام للعقل، ومحروم من كل روح نقدية، وبالتالي فهو لا يستطيع إلاّ أن يبدي سذاجة وسرعة تصديق منقطعة النظير، والمستحيل غير موجود بالنسبة إليه، وينبغي التذكير بذلك، من أجل أن نفهم كيف تخلق الأساطير والحكايات الأكثر غرابة وشذوذًا، وكيف تشيع وتنتشر بسهولة". (Serge MOSCOVICI, 1985, 39)

كما يشير سيرجي موسكوفيتشي أن ميلاد **جماعة منقادة هو أمر شديد السرعة**، وبالكاد يلاحظ الشخص كيف تجمعت معه ومن حوله كل تلك الأعداد الهائلة من أناس وتوّحدهم حول نفس القضية،(غوستاف لوبن، 1991، 67) فينخرط معهم في لمح البصر، ويصبح قادرا على ارتكاب الفظائع دون أي خوف أو تفكير أو تردد أو حتى ضبط للنفس.

- **الجمهور المنقاد افتراضيا يحب التضخيم، المبالغة، وخلق الأساطير وتصديقها:**

إن خلق الأساطير التي تنتشر بسهولة في أوساط الجماهير، ليس فقط ناتجًا عن سرعة كاملة في التصديق وإنما عن تشويه هائل أو تضخيم هائل للأحداث في مخيّلة الأفراد المحتشدين/الجمهور، فالحدث الأكثر بساطة يتحوّل إلى حدث آخر مشوّه، بمجرّد أن يراه الجمهور، فالجمهور يفكّر عن طريق الصور، والصور المتشكّلة في ذهنه تثير بدورها سلسلة من الصور الأخرى، بدون أية علاقة منطقية مع الأولى". (غوستاف لوبن، 1991، 67)

إن من ميزات أي جمهور وخاصة الجمهور الرقمي اليوم المبالغة، والتضخيم، وإضافة الكثير من البهارات الجذابة لخلق تفاعل مصطنع على صفحاتهم عبر توظيف عناوين جاذبة وكاذبة، يشاركها كثير من "المستخدمين المنقادين" الذين يستمتعون كثيرا بالأخبار الكاذبة وتداولها ونشرها.

- **الجمهور المنقاد يبالغ في تبسيط الأمر:**

العواطف التي تعبّر عنها الجماهير، سواء أكانت طيبة، أم شريرة، تتميز بطابع مزدوج، بمعنى أنها؛ مضخّمة جدًّا ومبسّطة جدًّا، وفيما يخص هذه النقطة وغيرها من النقط، نجد الفرد المنخرط في الجمهور يقترب كثيرًا من الكائنات البدائية؛ فهو غير قادر على رؤية الفروقات الدقيقة بين الأشياء، وبالتالي فهو ينظر للأمور ككتلة واحدة، ولا يعرف التدرّجات الانتقالية، وفيما يخص الجمهور، نلاحظ أن؛ المبالغة في العاطفة مدعمة من قبل الحقيقة الآتية؛ بما أن هذه العاطفة تنتشر بسرعة شديدة، عن طريق التحريض والعدوى، فإن الاستحسان والقبول الذي تلقاه، يزيد من قوّتها إلى حدّ كبير". (غوستاف لوبن، 1991، 74)

إذا، في العنصر السابق أشرنا إلى أن المستخدمين يبالغون في نشر القضايا، تهويلها وتكبيرها، فإننا في هذا العنصر نتحدث عن تناول الجماهير المنقادة للعواطف المضخمة وفي نفس الوقت تتفيهها وتبسيط موضوع الانقياد، عبر الإبداع في الإفتاء وتقديم رأيه على أنه شخص يفهم وقادر على أن يحلل ويركب ويناقش، وهي من ميزات المقصيين من الأفضية العامة التقليدية التي تحدث يورغن هابرماس عنها مطولاً في أطروحاته حول الفضاء العام.

3. سيكولوجية الجماهير أثناء واقعة بن إسماعيل:

إذا كان غوستاف لوبون يرى بأن الجماهير مجموعة تتسم بالنزق، والبدائية والتبسيطية، والقابلية للتحريض والسذاجة والتطرف في العواطف، والافتقار إلى ملكة النقد، والتعصّب، وقد تكون نتيجة ذلك أفعالٌ إجرامية أو أفعال بطولية، بحسب المحرّضين" لأن مواقع التواصل الاجتماعي خلال واقعة الشهيد جمال بن إسماعيل أثبتت ذلك جيدا، بغضبها غير المبرر على شخصه، والتطرف في ردود الفعل والركض على الشائعات وتصديقها.

إن الجماهير المنقادة يتحرر فيها الأفراد المنبوذون الذين لا يعترف بهم أحد ولا يؤخذ برأيهم في أوساطهم العائلية والاجتماعية في الأفضية العامة التقليدية كالمدرسة والجامعة والشارع، كما أشار إلى ذلك يورغن هابرماس، ففي الجمهور المنقاد "يتحرّر الأبله، والجاهل، والحسود من الإحساس من دونيتهم، وعدم كفاءتهم، وعجزهم، ويصبحون مجيّشين بقوّة عنيفة وعابرة، ولكن هائلة،وللأسف، فإن حس المبالغة والتضخيم لدى الجماهير، يتركز غالبًا على العواطف الشريرة التي تمثل بقايا وراثية عند الإنسان البدائي، ومن المعروف؛ أنّ الخوف من العقوبة يجبر الإنسان الفرد والمسؤول، على قمع هذه العواطف، وهكذا، يمكننا تفسير السبب في استسلام الجماهير لأبشع أنواع الممارسات، وأكثرها تطرّفًا". (غوستاف لوبن، 1991، 75)

فالجمهور عند لوبون لا يفهم الحاجّة العقلانية بل يفهم الآراء المبسّطة عن طريق الكلمات والشعارات التي تبثّ صورًا في مخيلته ليس بالضرورة أن تكون مترابطة عقليا، فالجماهير لا تحركها قضايا عقلانية، ونتاج السلوك الجمعي لا يعامل كل فرد على حدة.(محمد القطيبي، 2016)

فالجماهير حسب لوبون تتميز بتلاشي شخصية الفرد التي تميّزه حينما يكون جزءا من الجمهور، فلا ذكاؤه سينفعه ولا علمه سيمكّنه من اتّخاذ قرارات منطقية سليمة. فالفرد حينما يصبح جزءا من جمهور ما فهو يتحمّس لأفكار بسيطة نتيجة التّحريض والعدوى للعواطف والأفكار.

وتتمثل عدوى المشاعر والأحاسيس بانتقال السلوك العام للحشد الى جميع الأفراد المنتمين إليه، إذ تجد من يضحي بالكثير من مصالحه الشخصية في سبيل الحشد، بل إن هناك من يسخر ماله وعتاده خدمةً للحشد، ولا يبحث عن مصلحة شخصية من وراء ذلك بقدر الانتماء وانتقال عدوى هدف الحشد إليه.(أعمريوسفي ، 2121، 05)

كما تحدّث لوبون كثيرا في كتابه عن تأثير العرق la race على نفسية الجماهير، وهو لا يقصد العرق بمعناه المعروف، إنّما استعمله للإشارة إلى مجموعة كبرى عاش افرادها معا طويلا، وهي الفترة التي يكونوا فيها قد اختبروا وعاشوا وخضعوا لنفس العقائد والقوانين التي شكّلت وروح تلك الجماعات أو الجماهير. فللعرق دور كبير على نفسية الجماهير ومعرفة أفعالهم وردود أفعالهم.

ويبدو أن أغلب هذه الجماهير النقادة هي ذات مستوى فكري وثقافي ضحل حسب وجهة نظر غوستاف لوبون، ويبدو أن الإسباني المخضرم خوسيه أورتيغا يوافقه الرأي تماماً، إذ يشير في كتابه حول تمرد الجماهير، إلى أن "السوقية الفكرية هي التي باتت تمارس هيمنتها على الحياة العامة في الوقت الراهن" مقابل تراجع الصفوة وانغلاقها على نفسها.(خوسه ارتيغا أي غاسيت، 2121، 05)

كما أن غياب سلطة سياسية حقيقية وقوية يؤدي الى "إذا كانت هيبة السلطة متناوبة أو منقطعة؛ فإنّ الجماهير تعود إلى طباعها المتطرفة، وتنتقل من الفوضى إلى العبودية، ومن العبودية إلى الفوضى"، كما يذهب لوبون إلى أن "الاعتقاد بهيمنة الغرائز الثورية على الجماهير يعني الجهل بنفسيتها، فعنفها وحده هو الذي يوهمنا بخصوص هذه النقطة، فانفجارات الانتفاضة والتدمير التي تحصل من حين لحين، ليست إلا ظواهر عابرة ومؤقتة كون الجماهير محكومة كثيرًا باللاوعي وبالتالي فهي خاضعة، أكثر مما يجب لتأثير العوامل الوراثية العتيقة التي تجعلها تبدو محافظة جدًّا، فإذا ما تُرِكت لنفسها، تملّ من فوضاها، وتتّجه بالغريزة نحو العبودية". (غوستاف لوبن، 1991، 77)

إن أخلاق الجماهير منحطة، هذا الأمر حسب لوبون راجع إلى غرائز التوحش؛ فالجمهور الذي يمزق ضحيته إربًا إربًا، تلك قسوة جبانة، خصوصًا، عندما تكون الضحية لا تستطيع الدفاع عن نفسها، ويضيف لوبون: "وإذا كان الجمهور قادرًا على القتل، والحرق، ومختلف أنواع الجرائم؛ فإنه قادر، أيضًا، على أفعال التضحية والنزاهة، الأكثر ارتفاعًا بكثير من تلك التي يقدر عليها الفرد الواحد، فالتأثير يتم بشكل خاص على الفرد المنخرط في الجمهور، وذلك عن طريق التركيز على عواطف المجد، والشرف، والدين، والوطن". (غوستاف لوبن، 1991، 79)

لقد ربط الكثيرون بين الشاب جمال والحرائق المفتعلة، رغم أن قليلا من التفكير المنطقي يحيل إى استحالة قيام رجل أعزل وحده بحرق مساحات هائلة من الغابات الوعرة وهو ليس ابن المنطقة أصلا، وقد شكل ربطهم غير المنطقي بين الحرائق ومفتعلها ما تطلق عليها دوناتيلا بـ "الذخيرة" التي تحرك الجماعات الجماهرية والحركات الاجتماعية، والتي تتميز إلى جانب نطاقها القومي وطابعها المستقل بسمات أخرى أهمها طبيعتها المرِنة، وهو ما نَعني به إمكانية استخدامها من قِبَل طائفة متنوعة من الفاعلين لإحراز مجموعة متنوعة من الأهداف داخل مجتمعٍ مقسم إلى رتب وطبقات، يعزله سوء التواصل والأمية، وكن ينتظم أفراده في مجموعاتٍ مشتركةٍ متحدة". (دوناتيلادي لابورتا وماريو دياني، 2017، 233)

لقد سمحت الانترنت (ومن ورائها مواقع التواصل الاجتماعي)، بـ "تشكيل التكوينات الاجتماعية الجديدة التي انبثقت من هذه الهزة الرقمية الرهيبة والتي بدت كأنها تقدم عالَما اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا يتسم بالعولمة بقدرٍ متزايد. ما أدى إلى بروز تعبيرات جديدة عن المجتمع المحلي، الشيء الذي أتاح للأفراد الشعور بالارتباط في ظروف الخطر وانعدام الأمن التي تختلف اختلافا كبيرا عن الوجود التقليدي القائم على المكان. ومع بداية الثورة الرقمية، وقد جادل كُتاب كبار مثل باري ويلمان، هوارد راينغولد وكلود فيشر ومانويل كاستيلز في أن الناس لم يجدوا في المجتمعات المحلية ما يلبي طموحاتهم، بل أصبحوا ينظرون إلى أبعد من ذلك نحو الترابط الكوني فقد ذهب كاستيلز إلى حد الادعاء بأن العلاقات المحلية قد استُبدلت، حيث شهدت تحولا كبيرا في الألفة الاجتماعية في المجتمعات المعقدة قد حدث مع حلول الشبكات مكان المجتمعات المكانية كأشكال رئيسة من الألفة الاجتماعية وقد تبنى موقفا يَعتبر فيه أنه على الرغم من أن المجتمع المحلي بحدوده الجغرافية الواضحة القائمة على المكان والألفة الاجتماعية لم يختفيا من العالم بأسره إلا إنهما يؤديان الآن دورا بسيطا في بناء العلاقات الاجتماعية لأغلبية السكان في المجتمعات المتقدمة". (كيت أرتون جونسون ونيك بريو، 2021، 105).

خاتمة:

يمكن القول بأن الجماهير المنقادة تخضع بسهولة لأي محرّض متى ما كانت فيه نزعة عاطفية والتفت حوله جماعات ذات مستوى فكري واجتمعي محدود وذات صبغة عاطفية، ومع فورة الإعلام الجديد وانتشار مواقع التواصل الاجتماعي بقوة في الجزائر وخارجها، باتت هذه الأخيرة عنصراً حيويا في تحريك الجماهير وقيادتها وتهييجها، ويمكن القول بأن الشهيد جمال بن اسماعيل كان **ضحية لاتحاد الجماهير المنقاد ودمقرطة استخدام مواقع التواصل الاجتماعي**، والتغطية العاطفية المكثفة لأزمة الحرائق من زاوية عاطفية عنفوانية أدّت بطبيعة الحال(كما هو الشأن في ذلك تاريخيا) إلى نتائج كارثية أودت بحياة الشاب وهزت مجتمعاً هشاً أصلا قبل إثبات براءته وأثبتت ضرورة بط كل فرد لنفسه قبل انخراطه في أي جماعة منقادة عاطفية.

قائمة المراجع:

1. **باللغة العربية:**

أ. **الكتب:**

- إيريك هوفر.المؤمن الصادق. (2010). **أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية**.(تر: غازي بن عبد الرحمن القصيبي). هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، (الرياض/ بيروت/أبوظبي) : العبيكان للنشر، الانتشار العربي، مشروع كلمة للترجمة.
- جلال أمين.(2003).**عصر الجماهير الغفيرة**. القاهرة: دار الشروق.
- جيفري كيه روزر.(2017). **الجمهور؛ التسويق في عالم رقمي**.(تر: أحمد شكل). القاهرة: دار هنداوي للنشر والتوزيع.
- خوسه ارتيغا أي غاسيت. (2011).**تمرد الجماهير**.(تر: على الأشقر). دمشق: دار التكوين للنشر.
- دوناتيلا ديلا بورتا وماريو دياني. (2017).**الحركات الاجتماعية؛ مقدمة**.(تر: نيرة محمد صبري، مراجعة شيماء طه الريدي).القاهرة: هنداوي للنشر والتوزيع.
- ستيفن كولمان وكارين روس.(2012).**الإعلام والجمهور**.(تر: صباح حسن عبد القادر). القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع.
- سيجموند فرويد.2006).**علم نفس الجماهير**.(تر: جورج طرابيشي).بيروت: دار الطيعة.
- سيسيل بيشو،أوليفيهفيليول،ليليان ماتيو.(2017).**قاموس الحركات الاجتماعية**.(تر:عمر الشافعي).القاهرة: دار صفصافة للنشر.
- سيمون شاما.(2009).**مواطنون، حكاية الثورة الفرنسية**.(تر: حسان الدين خضور، مشروع كلمة للترجمة). أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.
- غوستاف لوبن.(2017).**السنن النفسية لتطور الأمم**.القاهرة: دار هنداوي للنشر.
- غوستاف لوبون. (1991). **سيكولوجية الجماهير**.(تر: هاشم صالح). بيروت: دار الساقي للنشر.
- كيت أرتون جونسون ونيك بريو.(2021).**علم الاجتماع الرقمي، منظورات نقدية**.(تر: هاني خميس أحمد). الكويت: منشورات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- مايكل هارت وأنطونيو نيغري.(2010).**الجمهور**.(تر: حيدر حاج اسماعيل).بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

ب. **الدوريات:**

- أعمر يوسفي.(2021).سيكولوجية الجماهير في التفاعل مع مضامين مواقع التواصل الاجتماعي، الاقتراب من الظاهرة بنظرية غوستاف لوبون، معالم للدراسات الإعلامية والاتصالية، المجلد01، العدد02.
- حدة يوسفي وسعاد بن عبيد. (2017).**مستوى الشعور بالتعضيد الإجتماعي من خلال مواقع التواصل الإجتماعي من وجهة نظر مستخدميها**، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد28.
- عادل المجداوي.(2019).**مفهوم الجمهور بين "البلاغة العامة" و"بلاغة الجمهور"**. مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد06.

2. **باللغة الأجنبية:**

- Hugo Mercier.(2020).**Not Born Yesterday The Science of WhoWe Trust and WhatWeBelieve**, New jersy :Prinston Univeristy press.
- John Dewey.(2005).**Le public et ses problèmes**, Paris : Gallimard.
- Mehdi Moussaid.(2019).**Fouloscopie, Ce que la Foule dit de nous**, Paris : humain sciences.
- Serge MOSCOVICI.(1985).**L'ÂGE DES FOULES. Un traité historique de psychologie des masses,** Bruxelles : Les Éditions Complexe.
- Serge Tchakhotine.(1952).**Le viol des foules**,Paris :Gallimard.